

الفصل العاشر

النشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية وأهميتها

يعد موضوع التنشئة الاجتماعية واحدا من الموضوعات الأساسية التي حظيت باهتمام واضح من جانب الباحثين المختلفين . خاصة أولئك الذين تندرج تخصصاتهم في اطار العلوم الاجتماعية . كما يعد أيضا واحدا من الموضوعات ذات التاريخ الطويل من الاهتمام ، فعمره في وجدان الباحثين ليس بالعمر القصير . فمنذ بداية التاريخ الطويل للكائن البشرى والتساؤل لم ينقطع عن الكيفية التي يتم بها نقل تركة أجيال سابقة الى أخرى لاحقة ، ومن ثم تحقيق الاتصال والتواصل بين الأجيال - تلك العملية التي تشكل قوام مفهوم التنشئة الاجتماعية .

وربما كان لهذا الأمر أهميته لدى الباحثين لعدد من الاعتبارات بإمكاننا ان نجعلها على النحو التالي :

١ - يعتبر الانسان من بين الثدييات عموما أكثرها اتساما بعدم النضج عند الميلاد . كما أنه من أكثرها احتياجا لفترة طويلة من الارتقاء قبل أن يكون بمقدوره ممارسة الأنشطة والمهارات المختلفة ، ومن الطبيعي أن ترتبط الحاجة الى فترة طويلة من الارتقاء عند الانسان بجهود أضخم من قبل منشئيه وهم بصدد تنشئته . وارتباط كلاهما (الفترة الطويلة من الارتقاء وضخامة جهود المنشئين) بالحاجة الى فهم واضح لعملية التنشئة ومقوماتها وأساليبها المختلفة (أنظر في هذا Levine, 1962, p. 140 & Maccoby, 1975

٢ - يشكل موضوع التنشئة الاجتماعية في جانب كبير منه مشكلة لها طابعها العملى في واقع الحياة . فما من أسرة توجد على ظهر البسيطة الا ويحركها شاغل قوى يختص بالكيفية التي يمكن أن تنشئ بها أبناءها . وتطلعا الى امكانية نسج الأبناء على غرار ما يهوى الآباء .

٣ - ان موضوع التنشئة بحكم كونه مفهوما واصلا بين الاطار الاجتماعي والأفراد - أى بحكم كونه مفهوما يختص بتشكيل أنماط شخصيات الأفراد على محاور الاطار الاجتماعي الذى يوجدون فيه ، هو السبيل الى فهم أنماط الأفراد على اختلافهم ، فى سوائهم وانحرافهم .. حيث لا يمكن تحقق هذا الفهم الا من خلال تبين حصيلف للصلة القائمة بين هذه الأنماط المختلفة من الشخصية والأنماط المختلفة من الأطر الاجتماعية .

٤ - ان موضوع التنشئة الاجتماعية ، بحكم قدرته على تمكيننا من فهم الأنماط المختلفة من الأفراد وذلك من خلال استجلاء ضروب الاختلاف بين هذه الأنماط مع اختلاف الأطر الاجتماعية ، انما يثير اهتمام الباحثين فى المجتمعات المختلفة بغية الوقوف على الأساليب السلوكية السائدة داخل مختلف هذه المجتمعات .. ومن تم توسيع رقعة التعامل مع المؤثرات انتى تمارس تأثيرها على الأفراد ، والوقوف على مدى مطاوعة الكائن البشرى لها :

٥ - ان موضوع التنشئة ، بحكم تمكينه من الوقوف على مدى مطاوعة الكائن البشرى ازاء النظر فى شكل تفاعله مع المتغيرات الاجتماعية المختلفة، انما يحمل متضمنات اجتماعية واصلاحية عدة سواء من حيث امكانية تعديل سلوك الأفراد وتقويمه أو من حيث ابراز ضروب سلوكية جديدة . الأمر الذى يجعل من دراسة هذا الموضوع ارضية تستند اليها أية خطة اصلاحية أو تقويمية :

٦ - ان موضوع التنشئة بحكم صدارته لأية مبادرة مقصود بها تغيير سلوك الأفراد ، انما يقضى بصدارة مماثلة ازاء النظر فى امكانية دفع المجتمعات على متصل التقدم .. ما دام أن الأفراد هم الذين يشكلون دعامة هذه المجتمعات .

٧ - ان موضوع التنشئة ، بحكم احتكامه الى مسلمة التأثير والتأثر بين الاطار الاجتماعي من جانب والأفراد من جانب آخر ، يجعل من شأن الاهتمام به ودراسته بطريقة مكثفة أن يكفلا امكانية تحديد الحجم النسبى

لمسئولية كل طرف من طرفى العلاقة (الاطار الاجتماعى والأفراد) عما يواجهه من سلوك يصدره الأفراد ، ومن ثم ترشيد حكمنا على بواعث السلوك وأسبابه ، ومن ثم أيضا ترشيد أحكامنا على ما نواجهه من مشكلات فى سياق التفاعل الاجتماعى .

وقبل أن ننتقد من وحي هذه الاعتبارات وما تحمله من متضمنات لما نحن بصدد النظر فيه الا وهو التفاعل الاجتماعى ومشكلاته ، فانه يجدر بنا أن نجيب على تساؤلين هاميين يختص أولهما بتحديد معنى التنشئة الاجتماعية ، ويختص ثانيهما بالأسباب السيكولوجية الدافعة بالأفراد الى تمثّل مضامين هذه التنشئة .

معنى التنشئة الاجتماعية

تعرف التنشئة الاجتماعية بأنها العملية التى يكتسب الفرد من خلالها الخصائص الأساسية لمجتمعه كما تجد هذه الخصائص منافذها فى ضروب معينة من السلوك ببطانتها الوجدانية ممثلة فى قيم واتجاهات اجتماعية عامة . بمعنى آخر، توجيه الفرد من خلال أساليب معينة للتعلم الى ضروب من السلوك ملائمة من منظور المجتمع الذى يعيش فيه ، والقائى به عن أخرى غير مرغوبة أو ملائمة وكفها . هى اذن عملية مقصود بها اكساب الفرد حساسية للمنبهات الاجتماعية (قيم المجتمع وأعرافه) والسلوك على غرار ما تقتضى به هذه المنبهات (Zigler & Child, 1969, p. 465)

فلكل مجتمع من المجتمعات نماذج وأنماط تحدد ما يجب أن يكون عليه سلوك أفرادها حيث تتبلور هذه النماذج والأنماط فى قواعد ورموز يورثها كل جيل للاحقه . هذا وترى فلورانس كلوكهن أن هذه النماذج والأنماط انما تنصب على عدد من الجوانب من أهمها :

- ١ - تصور معين للطبيعة البشرية .
- ٢ - علاقة الفرد بالطبيعة .

٣ - توجه الفرد على متصل الزمن ☺

٤ - الطابع السلوكي للفرد •

٥ - علاقة الفرد بالآخرين •

كما ترى فلورانس أن الهدف الأساسي من عملية التنشئة هو خلق ما يسمى بالشخصية المنوالية للمجتمع •• أى الشخصية التى تجسم العلاقات البارزة الواسمة للأفراد الموجودين فى مجتمع ما من المجتمعات • بمعنى آخر خلق اطار مشترك تتحدد للمجتمع من خلاله ملامحه المتميزة

(Kluckhohn, Et. Al, 1961, Ch. 1)

ومن الطبيعى فى ظل هذا الهدف أن تتضمن عملية التنشئة الاجتماعية صيغا للتدعيم الايجابى لسلوك من يحتكم الى مواضع المجتمع ومعاييره ، وصيغا للتدعيم السلبى لمن يحتكم الى خلافها ، بالإضافة الى خلق حاجة لدى الأفراد للعمل بما تقتضيه هذه المواضع •

ومن الطبيعى أيضا أن تكمن فلسفة خاصة فى عملية التنشئة الاجتماعية ألا وهى ارساء نوع معين من الثبات يمكن الفرد من معرفة الكيفية التى يتصرف بها وهو يواجه بالمواقف المختلفة ، ومعرفة الكيفية التى يتصرف بها اذا كان عليه أن يحقق هدفا ينشده • قوام هذه الفلسفة إذن هو الاقلال من التغير المستمر فى البيئة الاجتماعية الذى يحول دون خلق التنبؤات والتوقعات إبان التفاعل الاجتماعى •

مطاوعة الأفراد لعملية التنشئة الاجتماعية

قد يعن لنا ونحن بصدد الحديث عن مطاوعة الأفراد لعملية التنشئة الاجتماعية أن نطرح تساؤلين نجد فى الاجابة عليهما ضرورة ملحة للمعالجة الحالية • وهذان التساؤلان هما :

١ - هل هناك حقاً ما نسميه « بالمطاوعة من جانب الأفراد لعملية

التنشئة الاجتماعية •• بمعنى آخر ، هل هناك دلائل عملية وواقعية على تهيؤ الفرد للاستجابة ايجابيا لعملية التنشئة الاجتماعية ؟ ،

٢ - وإذا كانت هناك هذه المطاوعة فما هي الأسباب النفسية والنفسية الاجتماعية الكامنة وراء هذا التهيؤ وهذه المطاوعة ؟

وفي إطار الإجابة على التساؤل الأول ، يورد لنا المتخصصون في علم النفس الاجتماعي دلائل على مطاوعة الأفراد لعملية التنشئة الاجتماعية من أبرزها ما يسمونه بالثقل السيكولوجي للمواقف الجماعية . ومن أبرز هؤلاء مظهر شريف أستاذ علم النفس بالولايات المتحدة الأمريكية والذي يعد بحق رائداً من الرواد المبرزين في هذا المجال . وقد استندت وجهة نظره الى عدد من التجارب التي أجراها ومن أبرزها واحدة نذكرها في هذا المقام نظراً لأهميتها لما نناقشه .

وتتلخص هذه التجربة في أنه طلب من مجموعة من الأفراد أن يقوم كل منهم منفرداً بتقدير المدى الذي تتحرك في نطاقه نقطة ضوئية ثابتة الموضع في غرفة مظلمة تماماً . ومن المقدر لكل شخص ، بمقتضى قوانين الإدراك أن يراها تتحرك إذا ما ركز نظره عليها ليضع ثوان . ومن الطبيعي في ظل التسليم بمبدأ الفروق الفردية في الإدراك أن يختلف الأفراد في تقديرهم للمدى الذي تتحرك فيه نقطة الضوء هذه . ولذا فقد كان يطلب من كل فرد أن يقدم تقديراً خاصاً به يمثل حكمه على المدى الذي تتحرك في نطاقه ، ثم يطلب منه بعد الاستماع الى آراء مجموعة من الأفراد ذات أحكام متباعدة أن يقدم تقديره لمدى حركتها مرة أخرى . فأتضح من نتائج التجربة أن كل فرد من أفراد الجماعة بدأ - بعد استماعه الى آراء المجموعة - في التخلي عن حكمه الذي أصدره في حالة الانفراد لكي يلتقي مع أحكام زملائه . وهذه ظاهرة تعرف في علم النفس الاجتماعي بالظاهرة القمعية حيث التشتت في الأحكام في البداية يعقبه التقاء فيها بعد المرور بخبرة الاستماع الى أحكام الآخرين .

وفي جزء آخر من التجربة كان الباحث المذكور يطلب من الأفراد أن يصدروا أحكامهم على المدى الذي تتحرك فيه نقطة الضوء ، وهم في الموقف

الجمعى اولا ثم يطلب من كل منهم بعد ذلك أن يصدر حكمه مرة أخرى وهو منفرد • فكانت النتيجة أن جاء الحكم الفردى اللاحق متماثلا مع الحكم الجماعى (انظر فى هذا سويف ، ١٩٧٥ ، ص ص ٢٩٤ - ٢٩٩) •

وقد استفتح مظهر شريفًا من نتائج تجربته المشار اليها عددا من النتائج ربما كان من أهمها ما يلى :

١ - اذا ما بدأ الفرد منفردا بتكوين رأى خاص به فى ظاهرة معينة ، ثم اطلع بعد ذلك على آراء الجماعة ، فانه يتجه الى تغيير رايه لى يلتقى مع آرائها •

٢ - اذا ما كون الفرد رايه فى ظل الموقف الجمعى او وهو على دراية بآراء الآخرين ، فانه يظل على راية اذا ما طلب منه بعد ذلك أن يصدر رايه من جديد وهو بمفرده - أى هو يعيد عن الجماعة •

٣ - يستمر تأثير معايير الجماعة على الفرد لفترات زمنية طويلة حتى فى غيبة الجماعة •

٤ - والنتيجة الرابعة ، وهى نتيجة كامنة ضمنا فى النتائج الثلاث السابقة ، تتحدد فى أنه كلما زادت درجة تفاعل أعضاء الجماعة وبالتالي درجة جاذبيتها •• مال الأفراد الى مجارة احكامها •

وبحكم ضمنية هذه النتيجة تتبدى ضرورة اظهار الدليل الموضوعى عليها • وقد تكشف هذا الدليل من خلال عدد من التجارب (انظر فى هذا (Shaw, 1976, p. 89) ابحاث نتائجها عن عدم رغبة الأفراد فى التعامل مع الآخرين الذين يفتقدون السمات ذات الجاذبية الاجتماعية فى حين يظهرون هذه الرغبة اذا كان الآخرون يتمتعون بسمات لها جاذبيتها الاجتماعية فى محيطهم الاجتماعى •

وتحمل النتائج المشار اليها متضمنات هامة لما نحن بصدد الحديث

فيه . وربما كان من أهم هذه المتضمنات تأكيد ما سبق أن أشرنا إليه من حيث تشكيل الجماعة بمعاييرها ضغوطا على الفرد تجعل من امكانية استيعاب معاييرها أمرا من الأمور المتوقعة .

وفيما يتعلق بالإجابة على التساؤل الثاني يذكر لنا علماء النفس الاجتماعي عددا من العوامل يرونها دافعة بالأفراد نفسيا للاستجابة لعملية التنشئة الاجتماعية ، ومن أهمها :

١ - يولد الفرد وهو عاجز عن اشباع حاجاته البيولوجية التي تمكنه من انبعاث فتتعده الأسرة كجماعة أولية بالرعاية والعناية . والأسرة في قيامها بهذا الدور انما تمارس عددا من الضوابط والقواعد - تتزايد بتزايد عمر الفرد في طفولته - بالانصياع اليها تلبي احتياجات الفرد . بمعنى آخر انه ابان القيام بتلبية حاجات الفرد تغرس الأسرة في وجدانه أهمية دورها وتغرس فيه أيضا بذرة الاحساس بأهمية الالتزام بالمواضعات الاجتماعية حتى تتسنى لحاجاته امكانات الاشباع . ومن ثم تكون الأسرة باستراتيجية تعاملها مع الطفل أول من يولد الاحساس بالثقل السيكولوجي للآخرين وضرورة التعامل الايجابي مع معاييرهم .

٢ - يولد الفرد وهو خلو من الهاديات التي تحدد كيفية تعامله مع الأشخاص والمواقف والأشياء ، ولانما من أن يمكن من هذه الهاديات حتى يرسم توجهاته في الحياة بطريقة تتسم بالتوافق . وهذا هو ما يتولاه المنشئون المختلفون كمسئولية عليهم بدءا بالأسرة فالمؤسسات التربوية والأقران ووسائل الاعلام . فهؤلاء انما يكشفون له عن دلالة الأشياء والأشخاص والمواقف من خلال نماذج واهداف ذات حظ من القبول الاجتماعي .

٣ - ويتصل بالعامل الثاني عامل ثالث مفاده أن الفرد يولد بمجموعة من الامكانات البدنية والعقلية لايتسنى لها أن ترى النور وتصيح قدرات تمارس بالفعل الا من خلال المرور بخبرات محددة . والمنشئون المختلفون

هم الذين يشكلون مصادر هذه الخبرات .. ومن ثم يتولد الاحساس بأهمية التواصل مع هؤلاء المنشئين .

كما ان الأفراد بحاجة الى خبرات هؤلاء المنشئين أيضا حتى بعد ان تكون قدراتهم قد نمت . فالقدرة عندما توظف انما توظف في اطار اجتماعي له ملامحه المتميزة وله مشكلاته المحددة وأهدافه الخاصة . بالإضافة الى هذا فان الفرد عندما يوظف قدراته انما يحقق هدفا من وراء هذا التوظيف . والاطار الاجتماعي هو الذي يعطى قيمة لهذا الهدف - عاجلا أو آجلا - وبدونه لا يمكن للفرد ان يققا على شرعية هذا الهدف .

٤ - ان الفرد ككائن اجتماعي لايه وأن تحكم تفاعله مع الآخرين درجة واضحة من الاتساق والا افتقد التفاعل الصحي بينه وبين الآخرين . ومحال ان يتولد هذا الاتساق الا من خلال الالتزام بعدد من المحكات المسيرة لسلكه والتي يمدده المنشئون بها [٥]

٥ - ويرتبط بالعامل الرابع عامل آخر يتمثل - كما ألقنا في موضع سابق - في خلق امكانية التوقعات بين الأفراد . بمعنى آخر ، ان يعرف الفرد ما الذي يولده سلوك معين يصدره من استجابة ما من قبل الآخرين ، وما يولده من سلوك من قبل الآخرين من استجابة معينة منه . ومحال للأفراد ان يتواصلوا بغير هذه التوقعات المتبادلة ، والا أصبح لكل عالمه .. وصارت بالتالي عوالم الأفراد غير متناغمة فيما بينها . ولا يتأتى وجود هذه التوقعات الا من خلال الاحتكام الى صيغ عامة يهتدى بها الجميع في تفاعلهم .. وهذه الصيغ هي التي ترسيها عملية التنشئة الاجتماعية .

٦ - ان أي سلوك يصدره الفرد هو سلوك هادف ، بمعنى ان يحقق الفرد هدفا من خلاله . وتحقيق هذا الهدف له عائده على المجتمع من ناحية وعلى الفرد من ناحية أخرى . واذا كان هذا هو واقع الحال فان ما يراه الفرد مثيرا له لا بد وأن يكون له متضمناته الايجابية من منظور الاطار الاجتماعي العريض الذي يتربسب معاملة المنشئون الاجتماعيون . وبقدر احساس الآخرين

بهذا تتحدد للفرد قيمته أمام ذاته وقيمه عنه الآخرين . ولذا يمكن القول بأن عملية التنشئة الاجتماعية إنما ترسم الإطار الذي يمكن أن تنمو فيه اتجاهات تقدير الذات . وبدونها لا تنمو مثل هذه الاتجاهات .

لكل هذه الاعتبارات يتولد لدى الفرد الإحساس بقيمة الإطار الاجتماعي الذي يعيش في كنفه . ويتولد لديه الإحساس بضرورة اكتساب مواضع هذا الإطار الاجتماعي ، وبالتالي ضرورة المطاوعة للمنشئين الاجتماعيين على اختلافهم . . هذا وأن اختلفت درجة المطاوعة باختلاف درجة الأهمية التي يوليها لكل منشئ منهم .

المنشئون الاجتماعيون وتأثيراتهم النسبية

ربما بدت من خلال الإشارة الى مطاوعة الفرد لعملية التنشئة الاجتماعية ، ومن خلال الالمح السابق الى عدد من المنشئين المختلفين . . أقول ربما بدت من خلال هذا أهمية الإشارة الى الأدوار المختلفة التي يلعبها المنشئون ، وأهمية الإشارة الى إسهاماتهم النسبية من حيث تعميق وترسيخ التركة الثقافية التي يتناقلها جيل عن جيل ، والإشارة أيضا الى ما يمكن أن تلعبه هذه الإسهامات من دور من حيث إمكانية أحداث تغيير معين .

يرى المتخصصون في ميدان العلوم الاجتماعية أن هناك أربعة من المنشئين لهم أهمية خاصة في نقل التركة الثقافية من جيل الى آخر . وهؤلاء هم : الأسرة وجماعات الأقران والخبرات الأكاديمية ووسائل الاعلام . وعلى هؤلاء سيقترن حديثنا .

الأسرة :

تجمع البحوث المختلفة (على سبيل المثال (Strodbeck, 1958) على وقوف الأسرة كأكثر المنشئين أهمية ، وإذا كان لنا أن نسجل في هذا الموضوع الدواعي التي تجعلها هكذا فإنه يمكن حصرها على النحو التالي :

١ - تمثل الأسرة أولى الجماعات الأولية التي تتلقف الفرد وليدا وتتعهده .

بالرعاية حتى يشتد عوده .. كما أنها الجماعة التي تسود بين أعضائها -
في معظم الأحوال - مشاعر المودة والألفة في أقصى درجاتها .. متمثلة في
عطاء متبادل .

٢ - ترسم الأسرة لأفرادها حدود الحركة داخل الإطار الاجتماعي العريض
(المجتمع) في ظل وعى بموضعها في السلم الاجتماعي واستبصار بظروفها
الاقتصادية .

٣ - تلون الأسرة ما يتلقاه الفرد من خبرات وأفكار جديدة من خارجها
بلونها الخاص ، وكأنها بهذا تقوم بعملية تصديق أو تصفية لما تأتي به
المصادر الأخرى من تأثيرات على الفرد . وهي تقوم بهذا الأمر من خلال
تبصرها بمحركاتها الخاصة المتسرعة لما هو ملائم أو غير ملائم .

٤ - تقف الأسرة كوسيط فعال يستخدمه المجتمع في توصيل التراث
من السلف إلى الخلف .

٥ - يقف أعضاء الأسرة بحكم عطاء الأسرة لابنائها كنماذج وقدوات
يحاكياها صغارها .

٦ - تقف الأسرة كاهم الجماعات توليدا للانتماء .. هذا الانتماء الباعث
على الطمأنينة بين الأعضاء والباعث على الثقة ، بالتالي أيضا ، فيما تورثه
من مبادئ وقيم لابنائها .. ومن ثم يوليها الأبناء اهتماما خاصا ليعادله
اهتمام آخر .

ومن اكبر الدلائل على ما للأسرة من دورهام ما أبانت عنه البحوث
المتنوعة من وجود علاقة قوية بين ظروف التنشئة الأسرية ونمو قدرات
الفرد ، وعلاقة ما يسود جو الأسرة من مناخ نفسى معين بظهور ضروب
سلوكية مرغوبة أو غير مرغوبة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما كشفت عنه
الباحثة أنستازى من وجود علاقة سلبية بين ذكاء الأطفال وحجم الأسرة
بمعنى أنه كلما زاد عدد الأبناء قل ذكاؤهم ، وما كشفت عنه الباحثة الانجليزية
هيلدا لويس من أن أنماط العلاقات داخل الأسرة لها تأثيرها البين في تشكيل

السلوك المنحرف لدى الأطفال (انظر في هذا سويفت ، ١٩٧٥ ، ص ٢١) .
هذا وقد كشفت دراسة مصرية عن تأثير حرمان الأطفال من الإقامة مع والديهم
على رفع درجة القلق لديهم (ذات المرجع ، ص ١٥) .

ومن الأمور الباعثة على الاهتمام أن نجد حتى في الكتابات الحديثة
التي يطالعنا بها الباحثون في المجتمعات الغربية ، والتي يرون فيها أن دور
الأسرة في هذه المجتمعات قد أصابه التقلص . . نجد أن الأسرة مازالت
ممثلة بالنسبة لهم الوسيط الحضارى الهام . يقول بارى جلاسنر أستاذ
علم الاجتماع في جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة الأمريكية ، وجو ناغان
غريدمان مدير قسم التعليم والتدريب في مركز الطب النفسى بهاتشترز
والاستاذ بجامعة نيويورك الحكومية انه « بإمكاننا أن ندرك أن الأسرة هي
العامل المؤثر في انضباط الاجتماعى وأنها النظام المؤمن على انشاء الانراد
بالأساليب المقبولة اجتماعيا . . . » (Glassner, Et. AL, 1979, p. 226)

وإذا كان لنا أن نحدد العوامل المختلفة التي تجعل من الأسرة ذات
تأثير ، ايجابيا كان هذا التأثير أو سلبيا ، فاننا نحددنا في فئتين من
العوامل :

العوامل الاجتماعية : وتنطوى هذه الفئة على بعض المتغيرات المعينة
مثل الوضع الاجتماعى والاقتصادى للأسرة ، والوضع الحضرى (ريف -
مدينة) لها ، ومدى تماسك العائلة .

العوامل النفسية والنفسية الاجتماعية : وتتضمن هذه الفئة متغيرات
معينة مثل كيفية تنشئة الأسرة لأبنائها . . حل تنشئهم من خلال أسلوب
السماحة أو من خلال أسلوب التشدد ، ومقدار ما تمارسه الأسرة من تأثير
على الأبناء في اتجاه ربط الأفراد وجدانيا بأسرهم من عدمه .

وجدير بالذكر أن هاتين الفئتين من العوامل وأن أوردناهما مستقلتين
عن بعضهما فانه لا يخفى على القارئ صلتهما الوثيقة . فالوضع الحضرى

للأسرة ، على سبيل المثال ، انما يحدد درجة السماح التي تتيجها للأبناء .
كما ان الكيفية التي تنفسى بها الأسرة أبناءها انما تحدد قدرة الأبناء على
التحرك صعودا أو هبوطا على سلم المستوى الاجتماعى والاقتصادى .

ولكى نلقى الضوء على هذه النقطة ونوضح فى الوقت ذاته الدور الفعال
للأسرة كمنشىء ، وتأثير الأسرة على شخصيات الأبناء . . . وبالتالى ابرز
ضروب التنشئة الأسرية المرغوبة وغير المرغوبة . . . ومن ثم الدفع نحو ترسم
النموذج الملائم للتنشئة الأسرية . . . أقول لكى يتم لنا ذلك فاننا سنشير
الى دراسة هوفمان وساتزشتين عن تأثير تربية الوالدين على ارتقاء القيم
الأخلاقية عند الأطفال . (انظر

(Secord & Backman, 1974, pp. 496-498

قدم هوفمان وزميله فى هذه الدراسة تصنيفا من ثلاث فئات تختص
بأساليب التنشئة الأسرية : ١ - تأكيد القوة ، وبمقتضاه يتبنى الآباء
أسلوب معاقبة الأطفال اما بدنيا أو من خلال التعريض للحرمان المادى ،
٢ - عدم تقديم الحب للأبناء . . . وهو أسلوب ينطوى ضمنا أو صراحة
على احساس الطفل بالكراهية ، ٣ - الترشيح من خلال الايضاح والتفسير . . .
بمعنى أن يوضح الآباء ما يرغوبونه من سلوك معين ودواعى ذلك . وقام
الباحثان بتبين العلاقة بين هذه الأساليب الثلاثة من التنشئة والارتقاء
الأخلاقى كما يتمثل الأخير فى مدى مقاومة الاغراء والشعور بالذنب واصدار
السلوك الأخلاقى من وحي مبادئ الضمير لا خوفا من الروادع الخارجية ،
بمعنى آخر ، التوجه الأخلاقى الذاتى ، وأخيرا مدى تحمل الفرد لمسئولية
سلوكه .

وتبين من نتائج الدراسة أن أية صيغة من صيغ التنشئة الأسرية
انما تتضمن الأساليب الثلاثة . ومع ذلك فانه عندما يتغلب أسلوب العقاب
على الأسلوبين الآخرين ، فان غضب الأطفال يكون فى أشده . . . ومآل هذه
التربية هو الفشل . ففى ظل هذه الصيغة لا يعايش الطفل الاحباط فحسب
ولكن أيضا افتقاده القدرة على الاستقلال ، وتولد مشاعر الكراهية من جانبه
تجاه والديه كما تحركه مشاعر الفردية عند اتيانه بسلوك معين دون مراعاة
لآخرين .

فالسوك الملائم بالنسبة لطفل تربى على هذه الصورة هو ما يعود عليه هو فقط دون غيره بالنفع ويؤمنه من العقاب . وعندما يسود في صيغة التنشئة الاحتواء الضمنى أو الصريح على مشاعر الكراهية من جانب الوالدين فان استثارة الطفل تصل الى أقصاها بحيث تفوق هذه الاستثارة استجابة الطفل لما هو مرغوب اجتماعيا . أما عندما يغلب على صيغة التنشئة أسلوب الترشيد والايضاح فاننا نكون أمام أفضل صيغ التنشئة حيث يفضى هذا النوع من التنشئة الى أعلى درجة من درجات الارتقاء الأخلاقى . ففى ظل تنشئة كهذه تمارس أقل درجات التهديد مع الانصاح بجلاء عما هو ملائم أو غير ملائم من سلوك . كما أن السلوك لا يصدر فى ظلها خشية العقاب ، ولكنه يصدر من وحي مبادئ الضمير الشخصى . وبالتالي فان صيغة التنشئة الحالية وما تولده من ضروب سلوكية عند الأبناء مآلها فى انهاء الى نجاح فى العلاقات الاجتماعية وتحقيق للتوافق النفسى .

وقد أوضح هوفمان وزميله ازاء قيامهما بتحليل تفصيلى لسلوك الأطفال من الطبقة الاجتماعية الدنيا فى مقابل سلوك أولئك من الطبقة الاجتماعية المرتفعة أن أطفال الطبقة الاجتماعية والاقتصادية الدنيا لا يتمتعون بدرجة من الارتقاء الاخلاقى تماثل نظيرتها لدى أطفال الطبقة الوسطى . ويفسر هوفمان هذه النتيجة بتوفر أحد سببين أو بكلاهما معا :

١ - أن والدى أطفال الطبقة الدنيا يلجأون الى أسلوب العقاب وممارسة القوة كصيغة يمارسونها فى تربية أبنائهم . . . ويترك هذا بطبيعة الحال تأثيره السلبى - كما سبقنا الإشارة - على ارتقاء القيم الأخلاقية .

٢ - أن ظروف الطبقة الدنيا تقلل من الدور التربوى للوالدين حيث يقضيان معظم وقتهما خارج المنزل طلبا للرزق . . هذا فضلا عن ازدياد المنزل بالكثير من الأفراد أقارب وغرباء أحيانا . . الأمر الذى يكون من نتيجته القاء كل منهما مسئولية القيام بالدور التربوى على عاتق الآخر نظرا لمشاغلها العديدة . . ومن نتيجته بالتالى قضاء الأطفال أوقاتا طويلة خارج المنزل وما يجره هذا من احتمال تسرب تأثيرات سلبية الى الأبناء اذا ما أنخرطوا فى علاقات اجتماعية غير صحية خارج المنزل .

هذه التجربة التي قام بها هوفمان وزميله تحمل نتائجها متضمنات هامة نجملها على النحو التالي :

١ - للأسرة دورها الهام في عملية التنشئة .

٢ - ان التقرير باندور الهام للأسرة لا يعنى البتة ان كل أسرة تمارس دورها بالطريقة المأمولة - فهذا محكوم بعدد من الاعتبارات الاجتماعية والنفسية الاجتماعية بالمعنى الذى أوضحناه في سياق سابق وأبنا عن دلائله من خلال نتائج دراسة هوفمان وزميله .

٣ - ان الأسرة بحكم منطوق المضمون الثانى قد تولد أنماطا من الأبناء لا يتمتعون بالفاعلية الاجتماعية ، كما أن بإمكانها ان تولد أنماطا لها فاعليتها الاجتماعية (يشاركون بفاعلية في تحقيق أهداف المجتمع) .

٤ - ان التقرير بأهمية الأسرة كمنشئ ، والتقرير أيضا بتوقف فاعليتها على حسن قيامها بدورها في ظل وجود ظروف اجتماعية ونفسية معينة . . . انما يملى ضرورة الاهتمام بالأسرة حتى نتمكن من أداء أدوارها المتوقع لها ممارستها .

جماعات الأقران :

ليست العائلة بالمنشئ الوحيد ، فالى جانبها توجد جماعات الأقران . فعندما يلتحق الطفل بالمدسة الابتدائية على سبيل المثال ، يلعب أقرانه أيضا دورا فى عملية التنشئة . . . وان كان هذا الدور يمارس بطريقة غير مقصودة . فهم يدعمون ضروبا معينة من السلوك من خلال وقوفهم كنماذج يحاكيها الطفل ويتقمصها كما أنهم يلعبون أيضا دورا وهم يمارسون ضغطا اجتماعيا على زملائهم لكى يحدثوا تعديلا فى سلوكهم .

(Mussen, 1969, p. 392)

ويأتى الأقران كما يقول ميوسن

في مرتبة تالية للوالدين من حيث الأهمية . فالأطفال عندما يلتحقون بالمدسة الابتدائية لا تتوفر لهم خبرة كافية بكيفية التفاعل مع جماعات كبيرة من الأطفال . . . ومن ثم يوفر الأقران لزملائهم هذه الخبرة ، كما يحكيون لهم

صورة مصغرة لما يمكن أن يكون عليه السلوك في اطار رحاب اجتماعي
أوسع .

فضلا عن هذا ، فان وجود الطفل وسط الأقران انما يتيح له فرصة النظر
في سلوكه الذي أتى محملا به من أسرته ليرى مدى ملاءمته كسلوك يمكن من
التوافق الاجتماعي .

ويستمر هذا التعلم في مراحل عمرية تالية ، ففي مرحلة المراهقة يلعب
الأقران أيضا دورا في عملية التنشئة .. فهم يتيحون للفرد فرصة تعلم
الكيفية التي يتفاعل بها مع زملائه ، ويتيحون له فرصة ممارسة التحكم
الذاتي في السلوك ، كما يتيحون له أيضا فرصة الوقوف على المهارات
والاهتمامات الملائمة له ولعمره - خاصة وأن الأفراد بدءا من مرحلة المراهقة
تزداد درجة تواصلهم مع أقرانهم بدرجة أكبر مما كانت عليه في فترة عمرية
سابقة ، نظرا لما يتمتعون به من درجة من الاستقلال عن العائلة تزداد
بازدياد العمر ، ونظرا لازدياد احساسهم بضرورة تحديد هويتهم من خلال
تفاعلهم مع من يماثلونهم عمريا ، وعبارة « من يماثلونهم عمريا » لها
أهميتها في هذا المقام حيث أن الفرد في مرحلة المراهقة لم يعد طفلا صغيرا ،
كما أنه لم يصبح بعد راشدا يجعل من قبوله في عالم الراشدين أمرا يسيرا .
بالإضافة الى هذا ، فان من شأن تواصل المراهق مع من يماثلونه عمريا أن
يهيئه لعالم الراشدين الذي يتطلع اليه .

وربما أثير حول هذا الموضوع ، وخاصة مع إبراز الدور الهام للأقران ،
تساؤل يختص بالتأثير النسبي للأقران في مقابل تأثير الوالدين . فعادة ما
يثار هذا التساؤل في ظل ادراك لاحتمال وجود صراع بين الوالدين والأقران
كمنشئين لهما تأثيراتهما التي تختلف أحيانا في اتجاهاتها . الا ان حقيقة
الأمر انما تشهد بأن الصراع بين الوالدين والأقران ليس بالحدة التي
يتصورها البعض ، وذلك لعدد من الأسباب من أهمها :

١ - أن هناك تداخلا بين قيم الوالدين وقيم الأقران لسبب بسيط هو

أن كلاهما ينتظمان في إطار إجتماعى واحد ، وخاصة إذا كانا ينخرطان في طبقة اجتماعية واقتصادية واحدة . ومثال واحد على هذا ، نطرحة من خلال تمثيل حقائق مجتمعنا المعاصر ، أنما يقيم الدليل على هذا الأمر . فكثير من شباب اليوم قد يضع علامة استفهام حول جدوى الاستمرار في عملية التعليم في ظل ظهور متغيرات اجتماعية جديدة تجعل من بعض الحرف مصدرًا لكسب مادي يفوق بكثير ما يتأتى عن الوظائف المهنية التي تقتضى أحيانا درجة عالية جدا من التعليم . الا أنه على الرغم من هذا فاننا مازلنا نجد شبابنا ينجه الى التعليم الجامعى غير قابل لغيره بديلا حتى وان كان بديله أكثر ملاءمة له . ويوضح هذا المثال كيف يتفق الأقران مع الآباء فيما يولى من أهمية لتقييم اجتماعية معينة .

٢ - أن طبيعة التغيير الاجتماعى انما تدفع الآباء لأن يقربوا أقران أبنائهم من عالمهم، لاحساس منهم بأن مثل هؤلاء الأقران يمتلكون خبرة المعاشية السريعة لظروف التغيير الحضارى ، ولاحساس منهم بأن الأقران يعيشون في وجدان أبنائهم - فهم أبناء جيل واحد له متطلباته المختلفة . وازاء هذا تتحول قضية الصراع بين الآباء والأقران - اذا ما ظهرت الى حين - الى قضية مهادنة وتصالح يعد ذلك . . وان تمت المهادنة والتصالح في اطار من الترشيح والتوجيه من جانب الآباء .

٣ - أن الحديث عن الصراع بين جيلى الآباء والأبناء من منظور مطلق هو أمر يفتقد ، ولاشك ، الموضوعية ، فالحديث عن امكانية الصراع بين الآباء والأبناء محال الخوض فيه دون تبصر بطبيعة موضوع الصراع - فهل هو صراع على أساسيات أم صراع على ثانويات ؟ وهل يوجد الصراع حتى في ظل وجود ارتباط وجدانى قوى بين الأبناء وأسرهم أم يتبدى فقط في حالة تخلخل البناء الأسرى ؟ - ففى غالب الأمر لا يكون الصراع الا على ثانويات كما يزداد في حالة تفكك الروابط الأسرية .

وربما اكمل حديث المقام الحالى باثارة تساؤل يختص بمدى امكانية التأثير الايجابى لجماعات الأقران على سلوك الفرد في مقابل التأثير السبى

لها • واجابتنا على هذا التساؤل نحددها في صيغة موجزة مفادها ان التأثير الايجابي لجماعات الأقران انما تحدده ظروف التنشئة الأسرية ، فان كانت التنشئة الأسرية في صيغتها الملائمة ، فالأقرب الى الظن ان يتجه الأبناء الى أقران يدعمون بطبيعتهم ما يصدره هؤلاء الأبناء من سلوك سوى • وان لم تكن التنشئة الأسرية في صيغتها الملائمة فهناك احتمالان : اما ان يختلط الأبناء بأقران أسوياء فيقللون من التأثير السلبي الذي تركته التنشئة الأسرية او يختلطون بأقران غير أسوياء فيأتي سلوكهم (الأبناء) على نحو يجاق اتجاهات المجتمع العامة •

وربما يدعم تصورنا هذا ما كشفت عنه الدراسات المختلفة من كمون أسباب جناح الأحداث في محيط أسرهم وصيغة التنشئة التي انتهجتها معهم . فقد أبانت هذه الدراسات (انظر في هذا (Mussen, 1969, p. 744) عن وجود ثلاثة أساليب رئيسية تقف وراء السلوك الجانح وهي :

(أ) عدم اكتراث الوالدين بممارسة الاشراف الملائم على الأبناء ، (ب) الإفراط في الشدة كصيغة للتنشئة ، (ج) افتقاد التماسك بين أفراد العائلة •

للخبرات الأكاديمية :

تمثل الخبرات الأكاديمية بجوانبها المتعددة رحابا خصبا لاستثمار الأفراد بامكاناتهم المختلفة بصورة يتأتى عنها جعل هؤلاء الأفراد امتدادا للمجتمع بآماله المستقبلية ، وبحكم هذا المعنى لا بد وأن تكون طبيعة هذه الخبرات مشكلة بصورة محددة (توجيه رسمي) تجعل من هذا الامتداد امتدادا ميسرا وليس معسرا •

وهذا التوجيه الرسمي لعملية التعليم هو ما أحال التعليم في أذهان البعض الى صورة آلية بحيث صارت الخبرات تأخذ الشكل التلقيني أحيانا ، وأحيانا - في دائرة التصور - في أحيان أخرى الى مجرد صورة رسمية بحنة تخلو من الطابع غير الرسمي ، الا أن الدراسات المختلفة قد كشفت ، على الرغم من ذلك ، عن حقيقة هامة وهي إن الخبرات الأكاديمية وان كان لها

طابع التوجه الرسمي فانها لا تخلو من الجانب غير الرسمي الذي يميله تفاعل العناصر البشرية في موقف الخبرة ، سواء تمثلت هذه العناصر في فئتها : المدرسين وواضعى البرامج التعليمية من جانب والطلاب من جانب آخر ، او تمثلت في تفاعل هاتين الفئتين مع المحتوى المنهجي المقدم . . وذلك في اطار اجتماعى محدد له منافذه الى العملية التعليمية المنظمة .

وتصور العملية التعليمية على انها عملية ذات شقين : رسمى وغير رسمى . . هو تصور املى على بعض الباحثين في هذا المضمار أن يطالعونا في كتاباتهم (انظر على سبيل المثال «I» Bloom, 1974) بأهمية تحديد اهداف العملية التعليمية وما تمليه هذه الاهداف من أساليب اجرائية مختلفة . وهم في هذا انما تحركهم رؤية التباين في فلسفة التعليم عند القائمين على امره . فهناك من يدرك العملية التعليمية على انها تمكين للطلاب من تلقي المعلومات وفهمها ، ومنهم من يدركها بمنظور تمكين الطلاب من استيعاب المعلومات ، ومنهم ايضا من يدركها على انها عملية مقصود منها التمكين من الوقوف على جوهر عملية التعليم وماهيتها ، واخيرا هناك من يدرك ضرورة تمثيل العملية التعليمية لكل هذه الاهداف الثلاثة الى جانب اهداف اخرى تندرج في فئة الاهداف الوجدانية مثل ردود افعال الأفراد واستجاباتهم ايجابا او سلبا لمضامين الخبرة بالاضافة الى العلاقات الاجتماعية في محيط البيئة التعليمية ، سواء أخذت هذه العلاقات شكلا منظما له هندسته المحددة او شكلا غير منظم يخرج عن اطار العلاقات المحددة والمسيرة رسميا Bloom, 1970, «II»

ومن الواضح أن اختلاف فلسفة العملية التعليمية ومتضمناتها لا بد وان يثمر اختلافات مماثلة في نتائج العملية التعليمية ذاتها . . واختلافات بالتالى في شخصيات الأفراد . ومع اختلاف شخصيات الأفراد يثور التساؤل عما اذا كانت الاختلافات في العملية التعليمية بإمكانها أن تسمح بابرار صور للفنشة مختلفة قد يكون لبعضها اثر سلبي كما هو مقدر لمعظمها لأن يكون له آثار ايجابية .

ولكى نجيب على هذا التساؤل يتحتم علينا أن نتناول بالناقشة صورتين

من صور ممارسة العملية التعليمية نسوقهما كمثالين : احدهما صورة تقليدية تركز على تلقين المعلومات دون استبصار بأهمية خلق كيان للفرد يخول له الحق في التعامل مع المعلومات بصورة يتأتى منها استكشاف لاهتماماته وقيمه ، وانمائها بالصورة التي تتفق وطبيعته الخاصة واطاره الاجتماعي الذي يعيش فيه بكل ما يحمله هذا الاطار من قيم وأهداف معينة ، والأخرى صورة حديثة تركز على الفرد بمحدداته الشخصية ، وعلى ضرورة اعداده بكيفية تمكنه من أن يحدد ذاته بمكوناتها في صورة أهداف قريبة وأخرى بعيدة تنبع من اطار اجتماعي بعينه وتصب فيه أيضا .

وتجسيما للملاح هاتين الصورتين علينا أن نتناول الصورة الثانية بدرجة من التفصيل على محور مشكلة محددة ولتكن في هذا السياق انماء التفاعل الاجتماعي الصحي بين الأفراد - بمعنى آخر ، ادارة العملية التعليمية بشكل يسمح بابراز ضروب التفاعل السوي بين الأفراد . وتعاملنا التعليمي مع الصورة الثانية يمليه اعتباران :

١ - اننا نجد في التعامل مع الصورة الثانية سبيلا الى ايضاح ضمنى لطبيعة الصورة التقليدية غير الملائمة ، على اساس أن الصورة الأولى انما تتحدد بقدر بعدها عن الصورة الثانية .

٢ - أن الصورة الثانية مادامت هي الصورة النموذجية فمن شأن التفصيل فيها أن يحيلها الى ورقة عمل لخطط مستقبلية .

ودعنا الآن ننظر في الصورة الثانية ونحن نرسم معالمها كصورة تساعد على خلق نماذج للتفاعل السوي بين الأفراد . ومنظورنا لها يتحدد في جوانب ستة :

١ - تطويع المادة التعليمية التي يتلقاها الطلاب بهدف ابراز التفاعل السوي بين الأفراد . وهذا لا يعنى بالطبع أن تكون المادة المتلقاه خاصة بالتفاعل الاجتماعي السوي بين الأفراد . فالتفاعل السوي ليس بالشىء

الذى ينمو كاملا من خلال تدريس مقرر ينصب عليه ، بل هو بالأحرى شىء ينمو في اطار متكامل تتحرك جميع أجزائه بصورة يبرز منها الاحساس بضرورة التفاعل السوى وتنمو من خلالها مهارات هذا التفاعل . وجدير بالذكر أن ما يتعلمه الطالب من مقررات معينة لا يبد وأن ينتج جانب منه الى الاسهام في انماء العلاقات السوية سواء تمثل هذا الجانب في مضامين مادة معينة أو في شكل معين من أشكال تقديم المادة للطلاب *
(Kratich & Crutchen Field, 1948, p. 519)

٢ - لا يبد من ممارسة البرنامج التعليمى في ظل ظروف عامة ملائمة . فمن الصعب ارساء اتجاهات السماحة وانماء قيم المودة بين الأفراد ويوجد بين جدران المدرسة مدرسون لا يعكسون في سلوكهم مثل هذه الاتجاهات .

٣ - لا يبد وأن تقوى المدارس صلتها بأسر الطلاب لكى تبصرها بالأهداف التربوية . فالخبرات الأكاديمية تتأثر الى حد كبير باتجاهات الآباء ومعتقداتهم . فعندما تكون اتجاهات الوالدين غير متناغمة مع الأهداف التربوية لا يتسنى للبرامج الدراسية وأهدافها النجاح . وهذا هو ما حدا بـ"بائؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية لأن تطلب العون من الآباء عند تنفيذ برامجها ."

٤ - يجب على السياسة التعليمية أن تتحاشى ابراز التفرقة بين الأفراد . . . وسبيلها الى ذلك التأكيد على اسهامات الأفراد بحكم ما لهم من أدوار محددة متكاملة لكل منها نصيب في دفع حركة المجتمع الى الأمام . . .

* ارجع الى فصل لعب الأدوار وتبين الصلة بين التناول الحالى وما أوحينا به في الفصل المذكور من ضرورة عرض مشكلات على الطلاب لايتأتى حلها الا من خلال المشاركة الجماعية . وجدير بالذكر أن ادراكك للصلة بين مضمون الفصل الحالى وما تناولناه في الفصول الخاصة بأساليب تعديل السلوك انما يوضح لك حقيقة هامة وهى أن برامج تعديل السلوك وأساليبها ما هى في طبيعتها الا خلق صور جديدة من التنشئة الاجتماعية تلتفى تأثيرات صور منها غير مرغوبة .

وبالتالى الحث على قيام التعاون بين الأفراد مهما كانت اختلافاتهم وأوضاعهم المتباينة في السلم الاجتماعى .

٥ - من المحتم على أى برنامج تعليمى يخص نفسه من بين ما يخص بالتفاعلات السوية بين الأفراد ألا يتضمن فقط المعلومات الخاصة بماهية التفاعلات السوية . بل يجب أن يتضمن الى جانب ذلك تعليم المهارات التى تمارس بواسطتها مثل هذه الضروب من التفاعل . . وتمكين الأفراد من احراز العائد الايجابى من مثل هذه الصور من التفاعل .

٦ - لابد وأن تتيح البرامج التعليمية للفرد الفرصة لأن يحقق ذاته في ضوء امكاناته ، كما ينبغي أن تمكنه من أن يمارس دورا ايجابيا في العملية التعليمية بدلا عن الدور السلبي المعتاد - «دور المتلقى» - فالعملية التعليمية ههنا الأساسى هو اعداد فرد يواجه الحياة بنفسه بكل ما يقتضيه هذا من استقلال، وليس تحريك الفرد في مواجهته للحياة بأسلوب الوصاية المعجزة عن ممارسة الاستقلال . وهذا الهدف هو الذى يجعل من الفرد مبدعا ومبتكرا ومتفاعلا مع المحيط الفيزيقي والاجتماعى بأكبر درجة من الفاعلية .

وإذا تمثلنا هذه الصيغة بجوانبها الستة لوجدناها منطوية على عدد من المتضمنات من أهمها :

١ - انه من المتعذر في معظم الأحوال أن نفصل بين التنشئة التى تنم في رحاب المؤسسات الأكاديمية وتنشئة سبقتها في رحاب الأسرة . فالتنشئة في اطار المؤسسات الأكاديمية لابد وأن ترى على أنها امتداد لعملية التنشئة الأسرية ، هذا وان كانت التنشئة في محيط المؤسسات الأكاديمية هي تنشئة الاعداد المنظم لاطار اجتماعى أكثر اتساعا ، وتنشئة الاستبصار المعرفى الأكثر شمولا .

٢ - ان التباين بين نمط التنشئة الأسرية ونمط التنشئة في اطار المؤسسات الأكاديمية يوقع الفرد في صراع يقلل الى حد كبير من فاعلية

استيعابه لرسالة التنشئة ، كما يقلل من فاعلية تواصله واتصاله الجيد مع مجتمعه - وهذا هو مبعث الاهتمام بالأسرة وبضرورة اشراكها في تحقيق الأهداف التربوية كما سبقت الإشارة •

٣ - الأسرة كمنشئ، لم تنزل ، اذا ما قورنت بمنشئين آخرين كما سبق أن أوضحنا ، ممثلة لشيء هام بالنسبة للفرد •• حيث انها هي التي تحدد للمنشئين الآخرين امكانية ممارسة دورهم بفاعلية •

٤ - ان نجاح أية مؤسسة أكاديمية في ممارسة دورها انما يتوقف على ما تنتهجه من أسلوب مع الوافدين اليها يقترب في صيغته من صيغة التنشئة الأسرية السوية التي أوضحناها ابان حديثنا عن أسلوب الترشيد كأفضل اساليب التنشئة الأسرية • وعندما فُكّر هذا فاننا نقصد ما تأتي به التنشئة السوية من عائد معين خلاصته ان يجد الفرد نفسه في محيط المؤسسة الأكاديمية •

بعد هذا يعن لنا في هذا المقام تساؤل يختص بما يمكن أن تثمره المؤسسات الأكاديمية في ظل ترسم صيغة مختلفة عن الصورة النموذجية التي اوضحناها • واجابتنا على هذا التساؤل هي أن عائدها في أفضل صورة لايعدو التقليل ، ان لم يكن تأثيرها سلبياً أكثر منه ايجابياً • فبدون هذه الصورة النموذجية يتحول الفرد الى حامل لمعلومات الا انه عاجز عن توظيفها، سواء لصالحه أو لصالح مجتمعه •

وسائل الاعلام :

تلعب وسائل الاعلام دوراً واضحاً في عملية التنشئة الاجتماعية • ويتأتى دورها هذا من خلال امكانية تأثيرها على سلوك الأفراد ، ومن امكانية تشكيلها لمنظور الفرد عن بيئته ومنظوره عن نفسه • ومن بين وسائل الاعلام الهامة وخاصة للعامة جهاز التليفزيون وجهاز المذياع •• فهما يمثلان أكثر الوسائل انتشاراً لوجودهما لدى كل أسرة ، كما أن عدد ساعات المشاهدة أو الاستماع لهما في ازدياد مطرد (Eysenck, 1978, p. 10)

وتلعب وسائل الاعلام دورها كمنشى بحكم نهوضها بوظائف ثلاث :

١ - الوظيفة الاعلامية حيث تمد المشاهدين والمستمعين بالمعلومات .

٢ - الاقتناع .

٣ - الترفيه .

وتتفاعل هذه الوظائف الثلاث مع بعضها البعض . فالاعلام مقصود به الاقتناع والاقتناع باتجاهات ومعتقدات معينة ، كما يتيسر النهوض بهاتين الوظيفتين من خلال وظيفة الترفيه التي تجد صداها في وجدان المشاهدين والمستمعين . فالذائق الترفيحية لهذه الوسائل يجعل من اليسير على المرء أن يتجاوب ايجابيا مع الرسالة الاعلامية وما قد تحمله من امكانية تعميق قيم قائمة أو بث قيم جديدة .

وتبصرا بهذه الوظائف الثلاث حاول بعض الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية ، وبصفة خاصة علماء النفس الاجتماعى ، أن يتبينوا بنظرة تقييمية طبيعة الدور الذى يمكن أن تلعبه وسائل الاعلام . وقد انتهت بحوثهم الى عدد من النتائج نجلها على النحر التالى :

١ - انه على الرغم من الدور الاعلامى الهام الذى تنهض به وسائل الاعلام بحكم مالها من قدرة على اطلاق الأفراد المستمر والمتكرر على ما يراد توجيهه من معلومات ، فان استجابة الفرد لمثل هذه المعلومات رهن بتوفر عوامل أخرى في الموقف كاتجاهات الأفراد حيال ما يقدم من معلومات ، ومدى رسوخ عادات معينة أو توفر معلومات أخرى لديهم . فاذا كانت اتجاهات الأفراد محايدة ، ولم تكن لديهم آراء راسخة ليست على وفاق مع ما يقدم من معلومات ، وكانت مصادرهم الأخرى للمعلومات محدودة . . يصبح بالامكان تصور قيام دور فعال لوسائل الاعلام .

ومن أكبر الدلائل على هذه الحقيقة ما كشفت عنه البحوث التى تناولت وسائل الاعلام بالدراسة من حيث تأثيرها على انتخابات الرئاسة . فعلى

الرغم من أن هناك اعتقاداً راسخاً بأنه بإمكان وسائل الإعلام التأثير في تغليب رصيد انتخابي لمرشح معين على آخر ، فقد اتضح ان وسائل الإعلام انما تؤثر في هذا الصدد على فئة قليلة جداً من الأشخاص ، ولذا فان تأثيرها يظهر فقط عندما يكون المرشحون متقاربين في رصيدهم من الأصوات (Secord & Backman, 1974, p. 158)

ومن الدلائل الأخرى أيضاً ما تكشف - خلافاً للاعتقاد السائد لدى البعض - من أن ما يعرض من أساليب مختلفة للعنف وبعض صور الاجرام في وسائل الإعلام ليس ذا تأثير مباشر على تبني الاتجاهات العدوانية . فقد اتضح أن مشاهدة الأطفال لمشاهد العنف لا تدفع بهم الى ممارسة سلوك العنف . فسلوك أى فرد هو دالة مركبة لعدد مختلف من العوامل منها تأثير الوالدين وأساليب تنشئتهم لأبنائهم ، والأفراد المرجعيين الآخرين (من يحتكم الفرد اليهم ويقتدى بسلوكهم وهو بصدد اتخاذ قرار معين أو اصدار سلوك ما) .

٢ - ان تأثير وسائل الإعلام على سلوك الفرد يتوقف على طبيعة الموقف ذاته . فمحاكاة ما يعرض في وسائل الإعلام ليس هو بالأمر الذى يمكن توقعه بالنسبة لجميع ضروب السلوك . . ولكن يمكن توقعه فقط في حالة : (أ) ملامحة ما يعرض من سلوك في وسائل الإعلام للموقف الذى يحدث فيه السلوك ، (ب) وعندما يكون الفرد مهيناً للتعامل مع هذا النمط من السلوك ، (ج) وعندما تتوفر عوامل معينة في تربية الفرد تدفع به الى امكانية محاكاة ما يشاهده .

٣ - ان دور وسائل الإعلام من حيث التأثير في الفرد يتوقف على طول الفترة الزمنية المنقضية بين مشاهدة المادة الاعلامية واطدار السلوك ، بمعنى آخر أنه كلما طالت الفترة الزمنية قل تأثير المادة الاعلامية على السلوك والعكس صحيح .

٤ - ان تأثير وسائل الإعلام يتوقف على طبيعة المجتمع من حيث

انغلاقه أو انفتاحه ، فإذا كان المجتمع منفتحا (بمعنى أنه ليست هناك قيود تمارس على التعامل مع مصادر المعرفة داخلية كانت هذه المصادر أو خارجية) قل تأثير وسائل الاعلام . . وكلما كان المجتمع مغلقا زاد تأثير وسائل الاعلام . ويمكن تبرير هذه الحقيقة من خلال تفهم منطقتها ، وهو أنه حيث تتعدد مصادر المعرفة وبالتالي احتمال تباين رسالاتها فإنه لا يمكن ترقع أفراد احداها بالتأثير .

٥ - ان ما يرد من مضامين من خلال وسائل الاعلام لا يمر في أغلب الأحوال في طريق مباشر الى الفرد - فعندما يتلقى الفرد مضمونا أو يشاهد عملا اعلاميا ما ، فإنه يناقشه أولا مع الآخرين ذوى الأهمية بالنسبة له قبل أن يفضي به التلقى الى الاقتناع . فإذا صدق الأمراد ذوى الأهمية بالنسبة له على شرعية وملاءمة وواقعية ما تلقاه أمكن توقع تأثير للمادة الاعلامية ، أما اذا كان الحال على خلاف ذلك فلا يمكن توقع تأثير لمثل هذه المادة .

تعقيب ختامي

ويعد هذا الذي أوردناه عن المنشئين الاجتماعيين ودورهم يبدو الأمر بحاجة الى الانتهاء الى عدد من التخريجات وبيان متضمناتها :

١ - ان التنشئة الاجتماعية ليست بالعملية اليسيرة بل أنها عملية معقدة ومتشابكة العناصر ومتداخلة التأثير . ويوضح هذا الأمر الدور الهام لعملية التعلم التي أوضحنا معالمها في فصل سابق كما يوضح في الوقت ذاته ضرورة الاهتمام بايجاد تصميمات حسيطة لتعديل السلوك، خاصة اذا كان لهذا السلوك تاريخه الطويل مع الفرد .

٢ - ان الأسرة ، على الرغم من وجود منشئين آخرين بجانبها ، مازالت تمثل أكثر المنشئين أهمية . وهذا انما يلقى الضوء على أهمية الحياة الأسرية ويلقى الضوء بالتالى على ضرورة الاهتمام بها لكي ييسر المجتمع في طريق الآمال المرجوة . فالأسيرة هي التي تشكل اللبنة الأساسية لحياة الفرد .

٣ - أن فاعلية المنشىء تتوقف على حسن ممارسته لدوره - حيث ضرورة اطلاع الفرد على ضروب السلوك المرغوبة في ظل وعى بظروف هذا الفرد وامكاناته ، وممارسة المنشىء نفسه لهذا السلوك لكي يجعل من نفسه قدوة يقتدى بها ، وترشيد المنشىء للأفراد بما يراود غرسه من نماذج سلوكية معينة ودواعيها ، وتدعيم ضروب السلوك المرغوبة عندما تصدر ، بالإضافة الى تمكينه الأفراد أن يجدوا طريقهم بسهولة الى السلوك المرغوب في المواقف المختلفة حسبما يقضى به كل موقف . . فمن شأن هذا أن ييسر ادراك المنشىء كمصدر مرجعى .

ولا يخفى على فطنة القارئ ، وهو بصدد النظر في هذه النقطة ، وجه انشبه بين عناصر تحسين الممارسة من جانب المنشىء كما نوردها في هذا المقام وما أوضحناه من أساليب معينة لتعديل السلوك في فصول سابقة . ولاغرابة في هذا ، فالأساليب المختلفة لتعديل السلوك مامى الا محاولة لرسم صيغة تنشئة جديدة تختلف عن صيغة نشأ عليها الفرد ودمغته بطابعها .

وقد يعن للقارئ بعد أن أوضحنا الدور الهام للأسرة اذا ما وضعت مريض المقارنة مع ادوار المنشئين الآخرين أن يطرح تساولين مفادهما :

١ - اذا كانت الأسرة هي المنشىء الهام الذى يرسى دعائم كيان الفرد بدرجة تفوق الدور الذى يمارسه أى منشىء آخر ، فما هو حظ برامج تعديل السلوك من النجاح خاصة وأن المهنيين القائمين عليها ليسوا اعضاء في أسرة الفرد ؟

٢ - واذا كانت الأسرة هي اكثر المنشئين أهمية بالنسبة للفرد - فما معنى ما يقال أحيانا عن « فجوة الأجيال » (اختلاف كل جيل عن آخر يسبقه) ، والى أى حد يمكن النظر الى المجتمعات على أنها كيانات اجتماعية متطورة وليست ساكنة ؟

وبدءاً بالتساؤل الأول ، فان اجابتنا الموجزة عليه هي أن نجاح أى برنامج لتعديل السلوك ونجاح ممارسيه انما يتوقف على مدى ترسم المناخ

الصحي للأسرة النموذجية حيث تمكن الفرد في ظل هذا المناخ من أن يدرك الجماعة الجديدة (صغيرة كانت أو كبيرة) ، كجماعة هامة يأخذ فيها دور العضوية المقتنع بها ، وابرار حاجة لديه للانضمام الى هذه الجماعة ، مع اشباع هذه الحاجة في اطار هدف عام يتحقق للجماعة بكاملها ، هذا الى جانب ابراز معنى الدور الذي ينهض به كل فرد وضرورة تناغم الأدوار المتكاملة حيث أن تميزها لا يعنى عدم تكاملها .. ومن ثم الاعتماد المتبادل بين الأعضاء والذي تتمخض عنه في النهاية دافعية الفرد الى السلوك وفقا للمعايير الملائمة .

وربما كان هذا هو مبعث بروز اتجاهات للعلاج السلوكي في اطار اجتماعي (انظر في هذا Glassner & Freedman, 1979, Ch. 13) ، ومبعث الاهتمام بالأسرة واشراكها عند تنفيذ البرامج التعليمية للأطفال (انظر في هذا Boyd & Bluma, 1977)

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فإن اجابتنا عليه تجد طريقها من خلال تمثل ما سبق أن أوضحناه عند الحديث عن الأساليب المختلفة للتنشئة الأسرية . فالأسلوب الملائم هو الأسلوب الذي يبرز امكانيات الأفراد من خلال الترشييد والتوجيه والايضاح .. والأسلوب الذي يبرز امكانيات الأفراد هو الذي يتيح المزيد من التفاعل الصحي مع الاطار الاجتماعي العريض بعناصره المختلفة ، المورث منها والوافد ، والذي من شأن التفاعل بينهما أن يحدث تغييرا تدريجيا تراكميا .

فالأسرة ، وان كانت المؤمنة على نقل تركة الأجيال السابقة ، بإمكانها اذا ما ترسمت أسلوبا صحيحا للتنشئة أن تساعد على الدفع الى التغيير حتى يتاح لأبنائها أن يعيشوا ظروفَ عصرهم التي قد تقضى بايجاد أساليب مختلفة لأهداف واحدة .. هذا وان تم ذلك في ظل وعي منها بالحفاظ على جذور ثقافتها . ووجهة النظر هذه انما تفسر لنا سبب كمون عوامل تغير المجتمع في أسر يعينها .. أهلها طبيعة ظروفها ، اجتماعية واقتصادية ونفسية ، من تمكين أبنائها من أن تكون لهم فروع تصل بينهم وبين حركة العصر بقدر مماثل تمكينها اياهم من أن تكون لهم جذور تصل بينهم وبين قرائمهم .